فضيلة الإيثار

إن تعاليم الإسلام التى شرعها الخالق لإصلاح حال الخلق، جاءَت لتنقل البشرية إلى حياة مشرقة بالفضائل. وما جاءَ به الإسلام من عقيدة، وما افترضه الله على عباده من عبادات، وما دعا إليه الرسول الصادق الأمين من سلوك فاضل وأخلاق حسنة. إنما هو السبيل الوحيد للإنسان لكى تسمو نفسه بالخير وتفيض بالمشاعر الرقيقة للمسلمين، حتى إنه ليحيا بهم ويحيا لهم، لأن المجتمع الإسلامى علاقات بين أفراد تجمعهم وحدة الهدف، أدركوا ما بينهم من صلات، كما أدركوا الوجود المشترك الذى يتبادلون فى إطاره دفع الأضرار وتحقيق المنافع، والذين يمارسون فيه السعى الجماعى من أجل المثل والقيم. وإذا ما نصح الإسلام الإنسان فى معاملته للغير، وفى معاشرته للأُسرة أن يرعى حدود الروابط الإنسانية، وأن يتبادل مع هذا الغير الشعور الإنسانى الكريم. وإذا ما نصح الإسلام بذلك فإنما يعنى أن يكون هناك تجاوب إنسانى، تستريح إليه النفوس وترضى عنه، وليس تجاوب النفوس إلا ظاهرة تعبر عن الإدراك النفسى لجمال الألفة وعاطفة الأُخوة الصادقة.

وحينما تطرأُ على النفوس أدران الوساوس، وتنتابها نوازع التفرقة والأثرة والانعزالية، يأتى الاسلام فيسدى المعونة الكاملة للإنسان كى يدعم فطرته ويجلى أشعتها، فيتحسس هذه النفوس ويغسلها مما علق بها، ويجعلها حافلة بمشاعر أزكى وأنقى، والمؤمن فى نظر الإسلام هو المحسن، والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع، صاحب الإنسانية فى سلوكه مع نفسه ومع غيره.. إن رسالة الإسلام ليست تخطيطاً من إنسان، وليست طريقا من طرق التربية وضعه فرد من البشر. إن الإسلام وحى الله العليم بكل شىء. والإسلام ليس معرفة أنه إيمان وتقوى، إنه إيمان بالله، وخشية من الله، وتقوى الله، وهذا الإيمان هو مصدر الدفع فى الإنسان نحو اطمئنان نفسه، ونحو وعيه بالمجتمع. ونحو إسهامه فى بناء المجتمع واستقراره.

وإننا نرى فى وضوح أن قوة الإيمان بالله، والتصديق برسوله ﷺ تجعل النفس الإنسانية تشرق بالكثير من صفات الخير، وتتخلق بالآزاب والفضائل العظيمة، ولقد أثبت التاريخ والتجربة أن هذا الإيمان وهذا التصديق صنع رجالا ونشاءً اصطبغ سلوكهم بالشمائل الجليلة فكانوا يؤثرون إخوانهم بأموالهم وديارهم على أنفسهم، ويتنازلون عن قسمهم فى الغنائم من أجلهم، ويقدمون حاجة إخوانهم على حاجتهم، حبا لهم، ورغبة فى إخوانهم.

والإيثار هو تقدير الغير على النفس وحظوظها الدنيوية رغبة فى الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة. ويقال: آثرته بكذا أى خصصته به وفضلته.. قال تعالى فى سورة الحشر، فى شأن الأنصار الذين آثروا المهاجرين بأموالهم وديارهم: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1].

ويقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ أى يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدأون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «أفضل الصدقة جهد المقل» وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ**﴾[2] و ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ**﴾[3] فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به. وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام تصدق الصديق رضى الله عنه بجميع ماله فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.

وفضيلة الإيثار كان لها غعند رسول الله ﷺ أهميتها لما لها من عظيم الأثر على أصحابه. فكان يحرص على أن يتخلفوا بها ويتجملوا بجميل فعلها، وكان

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) الإنسان: ٨.

(٣) البقرة: ١٧٧.

رسول الله عليه الصلاة والسلام هو السباق إلى ما يدعو إليه ويأمرهم به، فإذا قصده أحد فى شىء وهو المحتاج إليه أعطاه إياه رغبة فى فعل الخير.

إن الإيمان الصادق إذا صادف قلوباً هيئت له، تمكن فيها، ونما وترعرع. وأشرقت آثاره على من حولها، وسعى أصحاب هذه القلوب فى إدخال السرور على الغير، والأخذ بأيديهم إلى ما يحبون وأصحاب الرسول ﷺ ضربوا أروع المثل فى هذا فكان اغتباطهم أكبر وأعظم حينما يؤثرون الغير على أنفسهم. ولقد كان لهذا الإيثار أعظم النتائج فى نشر الإسلام والاهتمام بالمسلمين. ومما يذكر فى تفسير القرطبى أن ابن المبارك قال : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها فى صرة ثم قال للغلام : اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح، ثم تلكأ ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه. فقال : يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذا فى بعض حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه . ثم قال: تعالى ياجارية اذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها . فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل وقال : اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل وتلكأ فى البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع، فذهب بها إليه. فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذا فى بعض حاجتك فقال: رحمه الله ووصله. وقال: يا جارية اذهبى إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ، فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا . ولم يبق فى الخرقة إلا ديناران قد جاءَ بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسر بذلك وقال : «إنهم إخوة بعضهم من بعض».

إن تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية حبا ورغبة فيما هو عند الله سبحانه وتعالى، وأملاً فى رحمته جل شأنه، حصيلة إيمانه كامل، وثمرة يقين راسخ، ولقد تألق المسلمون الأوائل فى الإيثار بالنفس، وبلغوا فيه درجة عليا، ومكانة عطى . لقد أثمر الإيمان بالله فى قلوبهم إيثار الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وحب رسوله على نفوسهم. فقدموا أرواحهم فداءً للإسلام. وصاحب الرسالة محمد عليه الصلاة والسلام. وأصحاب المبادىء الحقة والدعوات الصادقة

يقدمون أنفسهم فداءً للدعوة، والذين شرح الله قلوبهم للإسلام وخالط شغافها، وأُشربت حبه، لا تزعزعهم الأهوال مهما عظمت، ولا تزلزل العواصف أقدامهم مهما قويت، فالنفس هينة رخيصة مادامت تبذل فى سبيل العقيدة، والموت ليس بالخطر الذى يهاب، ما دام ذلك دفاعاً عن الإسلام واستشهاداً فى سبيل الله. ولقد كان المسلمون الأوائل نماذج فذة فى البطولة والتضحية والفداء، وبهذا تهيب العدو بأسهم وخاف سلطانهم، ويقول العقاد فى وصفه لأبطال الإسلام فى حروب الردة: «إذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ وريبة المرتابين، فهى قد كشفت كذلك عن الإيمان اليقين والفداء السمح واليقين المبين، فحفظت نماذج للنصر والشجاعة والإيثار والحمية تشربها صفحات الأديان، وجاءت الشهادة الأُولى على لسان رجل من أصحاب طليحة سأله: «ويلكم مايهزمكم» فقال: أنا أُحدثك ما يهزمنا. إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله، وإنا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه».

والمسلمون بفضل ما رسخ فى قلوبهم من عقيدة تحث على البذل والبر والتواد والتراحم والتعاطف، لم يكتفوا ببذل الطعام والشراب للغير، وإنما آثروا إخوانهم على أنفسهم وقدموا ما يمسك حياتهم وإن كانوا فى أشد الحاجة إليه. قال تعالى: «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيرا» أى يطعمون الطعام وهم فى محبة له، وشغف به.

المسكين العاجز عن الاكتساب، واليتيم الذى مات كاسبه، والأسير المأْخوذ من قومه المملوكة رقبته الذى لا يملك لنفسه قوة ولا حيلة، وإن إيثار أصحاب النبى ﷺ بما سابقوا به أنفسهم من فعل الخير، وإيثار الغير على النفس يدعو إلى إكبار وإعظام ما قاموا به. ولقد وجد فى المجتمع الإسلامى كثير من المؤْمنين الذين سمت فطرهم وارتفعت غرائزهم يؤْثرون غيرهم يطعامهم وشرابهم رغم ما يواجهونه من صعاب، وما يتحملونه من أعباءَ، رجاءَ رحمة الله وإبتغاءَ رضوانه. وإن قوة الإيمان بالله يتجلى أثرها فى الإنسان عند تعرضه لموقف الاختيار بين ماعند الله وعند الناس والمؤْمنون حقا يختارون ما عند الله جل شأْنه فيضحون بكل

ما يملكون غير خائفين فى الله لومة الائم، يوفون بالعهد ولا ينقضون الميثاق ويبذلون النفس والنفيس، ويطيقون المصاعب بصبر وثبات والنفوس المؤْمنة حق الإيمان تنظر إلى الغاية التى تريدها، وتعمل على تحقيقها، وهى فى سبيل الوصول إلى غايتها لاتهاب تكبر المتكبرين ولا تجبر المتجبرين، ولا تحرص على زينة الحياة الدنيا وزخوفتها وترفها، لأنها آمنت بحياة أكبر وأعظم من هذه الحياة، فيها الخلود ، وفيها رضوان الله، قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧][1]، أى ومن الناس فريق يبيع نفسه لله لا يبغى ثمنا لها غير مرضاته ولا يتحرى إلا صالح العمل وقول الحق، مع الإخلاص فيهما، فلا يتكلم بلسانين، ولا يقابل الناس بوجيهن، ولا يؤْثر عرض الدنيا وزخرفها على ما عند ربه، والقلوب المؤْمنة تواقة دائماً إلى فعل الخير، حريصة عليه لرفع منزلها، وإعلاء مكانتها عند ربها والمؤْمنون كلما أقبلوا على الله وتفانوا فى حبه وطاعته، ازدادوا يقيناً به وإقبالا عليه وتضحية فى سبيل إعلاء كلمته، ولا ترهبهم الدنيا ومن فيها ، ولا يخضعون لتقليد الغرب أو الشرق، ولا يكونون عبيد للمادة.

والمسلمون الأوائل بتمسكهم، بتوجيهات الإسلام استطاعوا أن يوحدوا صفوفهم ويقيمون أُمة قوية الجانب، عزيزة الكلمة لقد آثر كل منهم أخاه المسلم بما عنده، وقدمه على نفسه، فغرسوا بفضيلة الإيثار شجرة الأخوة والتراحم، وأكدوا روابط الأُخوة بينهم، فسادوا فى الأرض، وكتب الله لهم النصر، وأُمتنا الإسلامية فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى فى أشد الحاجة إلى التمسك بالفضائل والقيم الإسلامية.

* * *

(١) البقرة: ٢٠٧.